وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«٢٨»

الشيخ المناضل
عزُّ الدِّين القسَّام



فادي غانم

الشيخ المناضل
عزُّ الدِّيـن القسـَّام

صورة الغلاف

عبد الناصر الشعال

فـادي غـانـم

الشيخ المناضل

عزُّ الدِّين القسَّام

(١٨٨٢ - ١٩٣٥م)

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٤م

الشيخ المناضل عز الدين القسام / فـــادي غـــانم .- .-
دمشق: الهيئة العامة الـــسورية للكتـــاب، ٢٠١٤م .-
٨٨ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٢٨)

١ - ٩٢٣,٢: القسام، عز الدين غ ٢ - العنوان
٣ - غانم ٤ - السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«٢٨»

الشيخ المناضل
عزُّ الدِّين القسَّام
(١٨٨٢ – ١٩٣٥م)

يعتبر الشيخ عز الدين القسّام من أبرز الشخصيات التي كان لها دور بارز وفاعل فـــي مرحلة المقاومة في العشرينيات والثلاثينيات مــن القرن الماضي. وهو رمز كبير من رموز الحركات الوطنية الثورية.. ضحَّى بماله وروحه مــن أجل القضية الفلسطينية... واختطَّ فــي حياته وموته منهجاً نضالياً مقاوماً، أعطى القضية الفلسطينية بعداً جديداً لا تزال ثماره الزكية تؤتى أكلها حتى اليوم.

حياته - الولادة والنشأة

ولد الشيخ محمد عز الدين القسّام في مدينة جبلة إحدى عرائس البحر المتوسط، وكبرى المدن التابعة لحاضرة اللاذقية عام ١٣٠٠هـ /١٨٨٢م. عاش في أسرة فقيرة الحال المادي، لكنها غنية بالعلم والإيمان. والده الشيخ عبد القادر مصطفى القسّام من المهتمين بالتصوّف وعلوم الشريعة، وأمه حليمة قصَّاب. تزوَّج والده من امرأتين الأولى أمه حليمة وأنجب منها (فخر الدين، عز الدين ونبيهة)، والثانية آمنة جلول وأنجب منها (أحمد، مصطفى، كامل وشريف).

درس الشيخ القسّام في صغره وتعلم في زاوية الإمام الغزالي(١)، وكان أبوه من المهتمين بنشر العلم وتعميمه، وتربية المريدين وهدايتهم إلى الله عزّ وجلّ، فكان معلماً يعرفه الجميع في إحدى أبرز مدارس المدينة (الكتاتيب)، درس فيها أبناء

(١) يعتبر الغزالي أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، وعرف عنه التجديد، ومن أهم من تناول المسائل الأخلاقية من علماء الإسلام.

المدينة أصول القراءة وحفظ القرآن، ثمّ اشتغل لفترة مستنطقاً في المحكمة الشرعية. وبذلك فأسرة الشيخ القسّام ككل معروفة بمكانتها في المدينة من حيث اهتمامها بالفقه والشريعة واشتغالها بهما. هذه البيئة بتركيبتها البسيطة ساعدت على أن يتشرب الطفل عز الدين مفاهيم وقيم عائلته، وأن ينشأ بميل خاص نحو الشريعة والفقه في الدين الإسلامي، فيكون لأستاذه في «الكتّاب» رأي بتلميذه وإعجاب بنبوغه وتفوقه على أقرانه. وكان الأستاذ غالباً ما يلهج لسانه بذكر مزايا تلميذه عز الدين.

امتاز الطفل عز الدين بالميل إلى الانفراد والعزلة وطول التفكير، الأمر الذي أثّر في مستقبله، وجعله أكثر قدرة على فهم ما يدور حوله من أحداث وإدراك الأسباب والكوامن الأساسية خلفها.

وما إن يفع الفتى حتى حفظ كتاب الله، وتملّى من حديث رسوله، وأخذ علوم العقيدة والفقه واللغة العربية عن أبيه، وتتلمذ على يدي الشيخ سليم طباره أحد كبار علماء بيروت، فغرف من غزير علمه، وأفاد من سامي توجيهه. فإذا هو شاب واسع الأفق عالي الهمّة بَعيدُ المطامح.

السفر إلى الأزهر الشريف في مصر

هيأ تفوق القسّام في مدرسته الأولى، واهتمام أسرته بالتعليم، فرصة للسفر إلى الأزهر وطلب العلم هناك. وكان قد بلغ من العمر الرابعة عشرة. فسافر مع أخيه فخر الدين وبعض من أترابه إلى مصر لدراسة العلوم الشرعية في الأزهر الشريف موئل العلم وقبلته حينذاك، فتتلمذ هناك على يد جملة من علمائه، وتخرَّج تحت إشرافهم، حيث كان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده[١] والعالم محمد أحمد الطوخي. ومكث هناك ثماني سنوات أو أكثر بقليل، فنال شهادة الأزهر العالية دون المرور بالمراحل الأساسية والثانوية، التي كانت مفروضة على

(١) محمد عبده يُعدّ واحدًا من أبرز المجددين في الفقه الإسلامي في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة.

طلبة نيل هذه الشهادة، وذلك بسبب ما يملكه من ثقافة دينية تأسس عليها منذ كان في بلده، ولنباهته وسرعة استيعابه للعلوم الإسلامية من الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة وغيرها.

وقد تركت فترة دراسته في الأزهر في نفسه أثراً كبيراً، فملأت فؤاده ثقافة وعلماً وأترعت قلبه يقظة وفهماً، وغيَّرت نظرته إلى الكثير من الأمور، وسمحت له بالأخذ من الثقافة المعاصرة له بدرجة كبيرة، والتأثر بفكر الأزهر، معقل العلماء والثورة منذ القدم؛ وما وقوفه بوجه الغازي نابليون ببعيد. وهكذا فقد هيأت مصر - التي كانت آنذاك مصبَّ التيارات الفكرية المتعددة داخل الشرق الإسلامي - فرصة لتوعية الشاب عز الدين وتنويره بما يدور في العالم من صراع.

ففي مصر إذاً عرف القسّام الاستعمار الغربي البريطاني وجهاً لوجه، ورأى هجوم المفكرين الغربيين على الإسلام فكراً وحضارة وتاريخاً، وعايش بنفسه الصراع الدائر بين

هؤلاء وبين المفكرين المسلمين أمثال جمال الدين الأفغاني[١] ومحمد عبده ورشيد رضا[٢]، وفي مصر أيضاً عرف أنَّ الحركة الصهيونية وليدة الاستعمار الغربي وربيبته، وسمع عن تطلعاتها وأطماعها بفلسطين.

وآمن القسّام بأن المقاومة المسلحة ضدَّ الإنكليز والصهاينة في فلسطين هي الوسيلة الوحيدة لإنهاء الانتداب البريطاني، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فيها. ذلك في وقت كان فيه أسلوب النضال المسلح أمراً غير مألوف للحركة الوطنية الفلسطينية، حيث كان نشاطها يتركز في الغالب على المظاهرات والمؤتمرات.

---

(١) محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧)، أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية ومن أعلام الفكر الإسلامي بالنسبة للتجديد.

(٢) يعد السيد محمد رشيد رضا من رواد النهضة والصحوة الإسلامية المعاصرة ، بما له من إسهامات كبيرة في تقويمها ، وترشيد إطارها.

العودة إلى سورية

بعد أن فرغ من دراسته بالأزهر عاد الشيخ القسّام إلى مدينة جبلة عام ١٩٠٣، وقبل أن يباشر العمل، قام برحلة إلى تركيا، للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وعلى خطب الجمعة ودروس ما بعد صلاتي العصر والمغرب. وحين عاد حلَّ محلَّ والده في الكتّاب، فاشتغل بتحفيظ القرآن الكريم وبإعطاء دروس في بعض العلوم الحديثة في جامع السلطان إبراهيم بن أدهم قطب الزاهدين. متجاوزاً بذلك الحدود التقليدية لدور المعلم واقتصاره في ذلك الوقت على تحفيظ القرآن وتجويده، إلى العلوم الأولية والقراءة والكتابة.

ثم أصبح بعد ذلك إماماً لمسجد المنصوري في جبلة، الذي يتوسَّط المدينة، ونشط في الدعوة والتعليم فذاع صيته، وانتشر اسمه، وأصبح موئلاً ومقصداً. وكان في سيرته

الشخصية مثال الفضيلة والكمال لا ينهى عن خلق ويأتي مثله، ولا يدعو إلى طريق إلاّ ويكون أول سالك له. فكثر أتباعه ومريدوه وعظم شأنه وذاع صيته.

وغدا القسام بخطبه المؤثرة وسمعته الحسنة موضع احترام وتقدير السكان هناك وفي المناطق المجاورة. وربطته بكثير من السكان صلات قوية وصداقات متينة. حيث أصبح يدرِّس بمدرسة البلدة في النهار ويعلِّم الأميين لوجه الله تعالى القراءة والكتابة والقرآن الكريم ليلاً. وكان الشيخ القسام زاهداً في طعامه ولباسه، مضحياً بماله ووقته وجهده لنصرة المظلومين. فأصبح قدوة عملية يستمع له الناس ويطيعوه. وحاول بعض المتنفذين من أصحاب الوجاهة في المنطقة الضغط على الشيخ عز الدين القسّام، ربما للتخفيف من نفوذه الشعبي وتأثيره على الناس، إذ إنه أصبح موضع احترامهم وتقديرهم، ونال حبَّهم الشديد، إلاّ أنهم فشلوا في إخضاعه، فحاولوا استعداء السلطات العثمانية عليه فلم ينجحوا.

القسام ومشواره النضالي المقاوم

قررت إيطاليا سنة ١٩١١م، الاستيلاء على طرابلس الغرب واحتلالها، فبدأت بجمع حشودها بعد أن ادَّعت بعدم توفر الأمن الكافي لحماية مواطنيها في طرابلس، وادَّعت كذلك بأنهم يجدون مضايقة من الموظفين العثمانيين في الولاية وأنهم يحرّضون الأهالي ضد الأوروبيين. وأبلغت إيطاليا الدولة العثمانية بعزمها على احتلال طرابلس وبرقة احتجاجاً على اختلال الأمن وعجز الولاة العثمانيين عن حماية المستوطنين الأوروبيين وممتلكاتهم. وفي (١٩١١/٩/٣٠م) حاصر أسطولُها مدينة طرابلس، للتضييق عليها بهدف إخضاعها بالقوة وإرغامها على الاستسلام، فأثار هذا الاعتداء الإيطالي على مدينة طرابلس وأهاليها العرب في كل مكان، «فقاد الشيخ عز الدين القسام بنفسه، مظاهرة طافت شوارع مدينة (جبلة).

وقد سبق محاصرة الإيطاليين لطرابلس إنذارها لحكومة الاتحاد والترقي، الذي جاء فيه أن إيطاليا قررت إسباغ نعم

التقدم الأوروبي على طرابلس الغرب وأن عمل إيطاليا «المشروع» هذا اصطدم بمقاومة الباب العالي. ولما كانت إيطاليا لا تريد إضاعة الوقت بإجراء مفاوضات لا جدوى فيها، لذا قررت احتلال طرابلس الغرب وبرقة عسكرياً، صيانة لكرامتها وحفاظاً على مصالحها، المتمثلة في كون طرابس الغرب قريبة من السواحل الإيطالية الجنوبية، كما أنها مركز تجاري مهم للقوافل التجارية بين مصر والمغرب العربي من جهة وبين أفريقيا الوسطى وسواحل البحر المتوسط من جهة أخرى، ولأنها هي الولاية الوحيدة التي لا تزال خاضعة للدولة العثمانية في شمال أفريقيا. واقترحت على تركيا أن تأمر موظفيها بعدم مقاومة الاحتلال الإيطالي، وأمهلتها ساعة لتنفيذ هذا المطلب، وعليه فقد ردت حكومة الاتحاد والترقي على الإنذار الإيطالي بأسلوب مسالِم للغاية قالت فيه «أنها لا تضمر أي عداء إزاء المشاريع الإيطالية في طرابلس الغرب وبرقة ».

في عام /١٩١١/ انتقل الأسطول الإيطالي من المحاصرة إلى الاحتلال، فانتقل القسَّام من المظاهرات إلى التطوع القتالي، وقام بحملة لجمع التبرعات، وشرع في جمع

الأموال لشراء السلاح لتسليح المتطوعين، واتصل بالسلطات العثمانية، فأبدت ترحيباً حاراً، وطلبت من هؤلاء المتطوعين وعددهم /٢٥٠/ السفر إلى ميناء الإسكندرونة، كما وعدهم الباب العالي العثماني بإرسالهم إلى طرابلس الغرب فمكثوا في الإسكندرونة مدة /٤٠ يوماً/ دون جدوى لنقلهم إلى طرابلس الغرب، إذ تراجع الاتحاديون الأتراك عن نقلهم بإحدى السفن، وأمروهم بالعودة إلى بلدهم. فقفل القسّام راجعاً بمن معه إلى مدينة جبلة، فبنى مدرسة من المال الذي جمعه لتعليم الأميين وأستأنف مهمته التعليمية.

أما في طرابلس الغرب فقد واجه الإيطاليون مقاومة عنيفة من القبائل، التي استبسلت في الدفاع عن حقوقها وأرضها، وقبل أن تستطيع إيطاليا إخضاع الساحل لها، كانت حكومة الاتحاد والترقي قد وقعت معاهدة صلح لوزان في ١٩١٢/١٠/١٨، وسحبت بموجبه قواتها البسيطة من طرابلس الغرب واستدعت موظفيها. ومنذ ذلك الحين أصبحت طرابلس الغرب معروفة باسم / ليبيا /.

القسام والثورة السورية
ضد الاستعمار الفرنسي

شكلت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي التجربة الأولى في العمل العسكري للشيخ القسّام، في المواجهة مع الغرب. كانت سبقتها مشاهدته ومعايشته الاستعمار البريطاني في مصر، ومحاولته إرسال متطوعين لمقارعة الاستعمار الإيطالي في طرابلس الغرب، ومن ثم الانتقال إلى تجربة الصدام العسكري المباشر مع المستعمرين، ورفع السلاح في وجه جنودهم وعساكرهم في سورية.

وهنا سنلقي الضوء فقط على دور القسّام في إشعال فتيل الثورة ضد الفرنسيين.

فخلال الحرب العالمية الأولى «١٩١٤-١٩١٨» كان القسّام قد وثَّق صلاته بمشايخ الجبل، مثل كل الوطنيين في الساحل السوري وفي الداخل، أمثال الشيخ صالح العلي

وغيره، وقبل سقوط الساحل السوري بيد قوات الاستعمار الفرنسية في تشرين الأول /١٩١٨/. دعا القسّام إلى الثورة ضد المحتلين. فبادر إلى جمع المال وبدأ بنفسه قبل أن يسأل الناس، فباع أملاكه كلها، ووضع أثمانها في هذا السبيل، إذ اشترى الأسلحة والذخائر، وجنَّد الشباب والشيوخ وقادهم بنفسه. وتوجَّه مع أسرته إلى قرية الحفة في جبل صهيون، وهناك أخذ يحرِّض الناس، تمهيداً لإعلان الثورة، مستفيداً من الموقع الحصين للقرية، وطابعها الفلاحي. وعندما نادى منادي النضال في أرجاء اللاذقية، كان القسّام أول من لبَّى وأجاب، فانضمَّ إلى فرقة عمر البيطار في قرية شير القاق من جبال صهيون، وانتظم في عداد رجالها، وكان معه جماعة من تلاميذه وأتباعه الذين علمهم وهذَّبهم.

إنَّ اندلاع الثورة في جبال صهيون كان من نتاج دعاياته، وفي هذه المنطقة قاوم القسام أشد مقاومة، وكان أول من رفع راية المقاومة وحمل السلاح ضد الفرنسيين. كما كان في طليعة المقاومين مع مجموعة

من تلاميذه الذين تلقوا العلم في حلقات دروسه ومجالس وعظه، وكان من أبرزهم اثنان لم يتخليا عنه طيلة حياته وهما الشيخ محمد الحنفي والشيخ علي الحاج عبيد، بالإضافة إلى مجاهدين آخرين، كالشيخ أحمد إدريس، الحاج خالد، ظافر القسّام، وعبد المالك القسّام، والشيخ فخر الدين القسّام.

بقي الشيخ القسّام مناضلاً ضد الفرنسيين في سورية مع من تبقى من أتباعه في الفترة من «١٩١٩-١٩٢٠»، مستفيداً من التجارب التي خاضتها الثورة، فكانت « بتنوع تجاربها وتحالفاتها، مدرسة تربّى في قلبها الشيخ عز الدين القسّام، وتمثل دروسها الإيجابية والسلبية، ففيها تمرَّس على حرب العصابات، وعرف كيف يمكن لفلاحين مناضلين أن يواجهوا جيوشاً مدربة أحدث تدريب، يتحدونها بإرادتهم الصلبة وعقيدتهم التي لا تلين».

خاض القسام مع الفرنسيين معارك ضارية، وكبدّهم كثيراً من الخسائر في الأموال والأنفس، ولذلك فقد حاول

الاحتلال الفرنسي أن يقنع الشيخ عز الدين القسّام بترك الثورة والرجوع إلى بيته، فأرسل الاحتلال إليه زوج خالته عبد الرحمن محسن علي أديب، فوعده باسم السلطة أن توليه القضاء وأن تجزل له العطاء، في حال موافقته على الرجوع والتخلي عن مقاومته، فرفض الشيخ القسّام العرض وعاد رسول الفرنسيين من حيث أتى. وما لبثت المعارك أن أخذت تنقلب ضده، حيث طفق الفرنسيون يستقدمون لقتاله الفيلق تلو الفيلق، ويحكمون قبضتهم على جبلة وما جاورها، موقعاً إثر موقع، وجعل عز الدين ومن معه يتقهقرون يوماً بعد يوم، ويتراجعون من منطقة إلى أخرى ويفقدون ما معهم من الذخيرة والسلاح.

ثم إن فريقاً كبيراً من الأغنياء والوجهاء الذين كانوا يؤازرون القسّام وأتباعه أخذوا ينفضّون من حولهم، ويخضعون لسيطرة الفرنسيين ويعلنون ولاءهم لهم، ولا سيما بعد أن استشهد المجاهد الكبير عمر البيطار، وكثير ممن كانوا معه.

ولما أيقن عز الدين القسّام بأنه بات مهدداً بالتطويق بين ساعة وأخرى، وبأنه سيلقي بنفسه وبمن معه إلى التهلكة، اتجه برجاله إلى منطقة حلب وانضم إلى «إبراهيم هنانو» وظل يجاهد معه حتى انقضّ الفرنسيون على حركته، وبسطوا نفوذهم على سورية من أقصاها إلى أقصاها، وحكموا على المجاهدين الذين أفلتوا من أيديهم حكماً غيابياً بالإعدام، وكان في مقدمتهم عز الدين القسّام. وعينوا مكافأة كبيرة لمن يدلي بمعلومات عنه مقدارها ١٠ آلاف ليرة. لكن ذلك لم يزده إلاّ مضاء وإقداماً. وبقي الفرنسيون يطاردونه، فقصد الشيخ عز الدين دمشق، وبقي فيها إلى أن سقطت الحكومة الفيصلية بعد انتصار الفرنسيين في معركة ميسلون «١٩٢٠/٧/٢٤» فغادر دمشق قاصداً فلسطين، ليبدأ بتأسيس حركته النضالية ضد البريطانيين والصهيونيين.

الشيخ القسام ورحلته
إلى فلسطين

توجَّه الشيخ عز الدين القسّام نحو فلسطين. وكان ذلك في الفترة ما بين آب ١٩٢٠ وأواخر السنة نفسها، بدليل أن الشيخ عز الدين قد وقَّع على عريضة مقدمة من وجهاء وشخصيات مدينة حيفا للمندوب السامي تطالبه فيها بتعيين الحاج أمين الحسيني مفتياً للقدس، والعريضة مؤرخة في الخامس من نيسان ١٩٢١م، وكتب فوق اسم القسام وظيفته وهي «مدرس».

أما الطريق التي سلكها الشيخ القسّام مع أتباعه الستة الذين رافقوه « وهم أحمد إدريس، الحاج علي عبيد، الشيخ محمد الحنفي، الحاج خالد، ظافر القسّام وعبد المالك القسّام »، فقد عيَّن عبد المالك القسّام نقطة البداية لها من جسر الشغور، ومنها إلى بيروت مشياً على الأقدام، معتمدين على التنكُّر. وفي بيروت أقاموا في الجامع العمري بمساعدة الحاج خليل سكر، ومن الجامع العمري إلى دمشق. رتَّب الشيخ عز الدين

القسّام زيارة سرية خاطفة، التقى فيها بزميل دراسته في الأزهر عز الدين التنوخي الذي زوَّده بجواز سفر مرور، ونظم الحاج خليل سكر أمر نقلهم من بيروت إلى صيدا بسرية تامة، ومن صيدا إلى عكا بواسطة قارب صغير.

وانتقلت المجموعة من عكا إلى حيفا، وصادف وصولها عصر يوم جمعة، وأدت صلاة المغرب في جامع الجريئة، حيث تطوع الشيخ عز الدين القسّام وقدم درساً لفت أنظار الحضور إليه، وبدأت الأسئلة تدور حوله، وغادر المصلون المسجد، وبقي الشيخ مع مجموعته، فاستفسر منهم الحاج عبد الله مسمار عما يفعلونه، لأنه سيغلق المسجد ويعود إلى بيته. ويبدو أن الحاج عبد الله، كان قيم المسجد، وسمساراً للمساكن، إذ يحمل رزمة من المفاتيح، أعطى القسّام وجماعته شقة من غرفتين بدون أغطية، وليلتها نام الجميع على الحصيرة، والتحف الشيخ جبته.

ثمّ نزل القسّام ضيفاً عند قريبه الحاج أمين نور الله، الذي كانت له علاقة مع أعضاء الجمعية الإسلامية بحيفا، واستضيف لفترة من الوقت في منزل عبد الفتاح الخطيب، وكان يتردد عليه رفيق دربه الشيخ محمد حنفي، ثمّ سكن في

بيت الحاج عبد الواحد الحسن الواقع في حارة اليهود. وبقي في هذا المسكن حتى مجيء زوجته وأولاده الذين نقلهم سائق من بيروت بجواز سفره.

وسكنت الأسرة في الحي القديم من المدينة، وهو الحي الذي يجمع فقراء الفلاحين النازحين عن قراهم، بعد استيلاء الصهاينة عليها، وعاشوا فيه تحت سقف أكواخ الصفيح البائسة، واضطروا للعيش في ذلك المستوى المنخفض من الحياة بسبب الهجرة اليهودية، وأبدى القسام اهتماماً حقيقياً أصيلاً بتحسين أحوال معيشتهم، وبدأ يكافح الأمية في صفوفهم، من خلال إعطاء دروس ليلية. وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية يكنون له أبلغ الاحترام والمودة، بفضل زياراته المتكررة لهم وما يتسم به من أصالة في الخلق والتقوى.

وبعد شهرين من الإقامة، أصرَّ الحاج خالد، من جبال صهيون على العودة إلى بلدته، ومن هناك يمكنه التبرع بعائدات عمله إلى حركة الشيخ القسّام. وعاد الحاج فعلاً، ولكن القوات الفرنسية ألقت القبض عليه وهو في أطراف مدينة «جبلة» فأعدم بطريقة بشعة، إذ جمع الفرنسيون سكان القرى، وسكبوا الكاز على الحاج خالد وأحرقوه حياً

أمامهم. وتعيد هذه الطريقة في قتل المناضل الحاج خالد إلى الأذهان أساليب الفرنجة الوحشية في حملاتهم العسكرية ضد البلاد العربية، كما أنها تعكس الصمود العربي المشرِّف في وجه المستعمرين.

وهنا لابد من لفت النظر إلى نقطة مهمَّة. وهي أن القسام دخل فلسطين وفي نيته القيام بعمل وتحرك نضالي قبل أن يلتقي بالقيادات الفلسطينية ويتعرف إليها، بدليل أن الحاج خالد استعد للتبرع بعائدات عمله لهذه الحركة، بعد شهرين من دخولهم فلسطين.

وعليه نرى أن القسّام ورفاقه لجؤوا إلى فلسطين واستقروا في قرية الياجور قرب حيفا. ولكن حتى سنة ١٩٣٥ لم يكن سكان حيفا يعرفون عن عز الدين القسام سوى أنه واعظ ديني ومرشد سوري، وبعدها أصبح رئيس جمعية الشبان المسلمين في مدينة حيفا، وكان بنظرهم شيخاً محمود السيرة في تقواه وصدقه ووطنيته. كما كانت منطقة الشمال تعرفه إماماً وخطيباً بارعاً ومأذوناً شرعياً في جامع الاستقلال، وهو الذي سعى في تشييده، وقد جمع المال والسلاح لنجدة المقاومين في طرابلس

الغرب أثناء حملة الإيطاليين عليها. وفي عام ١٩٢٩ أُشيع أن اليهود يريدون أن يحرقوا مسجد الاستقلال بحيفا، فاقترح بعض الوجهاء أن يطلبوا المساعدة من الإنكليز، لكن الشيخ القسّام رفض رفضاً قاطعاً وقال: إنَّ دمنا هو الذي يحمي العرب ويحمي المساجد وليست دماء المحتلين. كان يرفض أي حوار أو معاهدة مع الإنكليز ويقول (من جرّب المجرّب فهو خائن) فقد جرّب بعض العرب الإنكليز ضد العثمانيين وكانت كل وعودهم كذباً.

كان القسّام يركّز في خطبه على أن الإسراف في زخرفة المساجد حرام، وأن علينا أن نشتري سلاحاً بدل أن نشتري الثريات الفاخرة. وكان يختلف كثيراً مع الشيوخ لأنهم كانوا لا يهتمون سوى بأمور العبادة من صلاة وصوم، بينما كان اليهود يخططون ويشترون الأراضي. وأصبحت الأمور واضحة بعد أن نال اليهود وعد بلفور. كما كان في شجار مع المستعجلين من أبناء تنظيمه، الذين يريدون الثورة في حين كان القسام يعدّ ويتريّث ليضرب في الوقت المناسب، فلبث سنين وهو يعد للثورة.

مدينة حيفا
تحت الانتداب البريطاني

من الأمور التي شاركت في تفعيل دور الشيخ عز الدين القسّام النضالي في فلسطين اتخاذه مدينة حيفا مقراً للسكن والحياة، ومما لا شك فيه أن مزايا حيفا وموقعها في فلسطين قد ساعدت القسّام بشكل كبير على المضي بعمله ونشاطه بطريقة ناجحة، بالرغم من المعوقات العديدة التي وجدت في مدن فلسطين المركزية الأخرى.

فحيفا المدينة الجميلة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، وذات الخليج البحري المهمّ، كانت من ناحية المواصلات تتصل عن طريق البحر بمدن لبنان وسورية، ووصلها عن طريق البر بالخط الحديدي الحجازي الذي يشق طريقه من قرية المزيريب جنوب سورية إلى وادي اليرموك، فنهر اليرموك، فبيسان ثمّ مرج ابن عامر وصولاً إليها. وقد منح

هذا الخط حيفا سهولة الاتصال بباقي مدن فلسطين، كما أنه فتح أمامها الحياة الحديثة فصارت مرسى كبيراً للسفن، ونمت تجارتها مع دمشق وغيرها من المدن المهمَّة.

وبعد بيع الأراضي واستيلاء اليهود على مساحات واسعة من أراضي سهل مرج بن عامر، نزح الكثير من الفلاحين إلى حيفا ليعملوا في شركات السجائر، وسكة الحديد، وفي التجارة. وفي حيفا القديمة كان هناك نحو ١١,٠٠٠ فقير عاشوا في بيوت من الصفيح بعد أن هدمت دورهم، وسلبت منهم قراهم. وكان هؤلاء الفقراء المعدمين أصدقاء الشيخ وموضع ثقته، ومن خلاله وتحت قيادته كان لهم دور رئيسي في تاريخ القضية الفلسطينية.

أما الانتداب البريطاني، فقد جعل حيفا قاعدة لأسطوله، ونصب فيها المدافع وشيَّد القلاع على جبالها وفي ضواحيها، وجعل فيها عنابر ضخمة مليئة بالقنابل والقذائف والرصاص والديناميت، ومختلف أنواع الأسلحة، فكانت قوة الانتداب وجبروته مختزنة في حيفا، وفي معروضة على جبالها وفي بحرها.

لمحة تاريخية عن فلسطين
والانتداب البريطاني حتى عام ١٩٣٥م

جاء في مذكرة أرنوك توينبي الذي كان يعمل في دائرة الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية البريطانية بتاريخ تشرين الأول ١٩١٨، والتي يعالج فيها مستقبل فلسطين ما يلي:

«إنَّ حكومة جلالته ترغب بصورة خاصة بتأمين التسهيلات المعقولة في فلسطين للاستعمار اليهودي، دونما إفساح المجال للرأي العام العربي أو الإسلامي في انتهاز فرصة اعتبار أن بريطانيا العظمى قد لعبت دور الإدارة في تسليم أرض عربية أو إسلامية حرة إلى غرباء».

ونص وعد بلفور على رغبة بريطانيا في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وإنها ستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية.

وبعد أن دخلت القوات البريطانية محتلة فلسطين في كانون الأول ١٩١٧ ابتدأت السياسة العملية لتنفيذ الوعد، فجاء انتداب بريطانيا على فلسطين بقرار من عصبة الأمم، وأُرسل اليهودي الصهيوني هربرت صمويل ليشغل منصب أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين. وجاء صك الانتداب واضحاً وصريحاً يحدد نية بريطانيا بدقة بقوله: «إن الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في الأحوال الاقتصادية والسياسية والإدارية، وتضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي».

كان مطمع الصهيونية الأسمى الاستيلاء على الأرض والاستيطان فيها، وبالذات الأراضي الخصبة في المناطق السهلية والساحلية، ولإشباع الرغبة اليهودية بطريقة إدارية ناجحة، تم تعيين اليهودي / الكابتن نورمان بنتوتيش/ نائباً عاماً، أي رئيساً للإدارة التي تسنُّ القوانين، فوضع هذا الصهيوني عدة قوانين تسهل استيلاء اليهود على الأراضي، وجعل المزارع العربي في حالة تضطره إلى بيع بعض أو كل ما يملك من أراضٍ.

واتبعت بريطانيا عدة أساليب لتحويل ملكية الأراضي من العرب لليهود، منها قيامها بعمليات تسوية الأراضي، وهو مشروع يرمي في ظاهره إلى حل مشاكل ملكيات الأراضي، وخاصة تلك الأراضي التي كانت ما تزال باسم أملاك الدولة في عهد الاحتلال العثماني، فكانت محاكم الأراضي تعتبر كل سند ملكية (يدعى - كوشان) يهودي عثماني صحيحاً، فتسجل باسم صاحبه كل شبر من الأرض يدعيه لنفسه، وأما عندما يكون الكوشان عربياً فالحكم ينقلب في النهاية إلى النقيض: إذ كانت المهمة الرئيسية لهذه المحاكم، والذين منحت لهم صلاحيات قضائية واسعة أن يضعوا كواشين العرب محل اعتراض وادعاء. وإلى جانب تسلط اليهود على أرض الفلاح الفلسطيني كانت تواجهه مشاكل أخرى أكبرها مشكلة الدَّيْن. ففي التقرير الذي وضعه مستر كلاند من الإدارة الانتدابية عن الوضع الاقتصادي في فلسطين نجد العبارة التالية: «إن مصيبة الفلاح الفلسطيني في ديونه».

وجاء في تقرير اللجنة الملكية ١٩٣٧، أن الفلاح الفلسطيني يولد مديناً، ويعيش بالدين، ويموت غارقاً بالدين.

وأوضح هوب سمبسون الخبير البريطاني الذي قدم إلى فلسطين عام ١٩٣٠، ووضع تقريراً مفصلاً عن الوضع فيها، نتائج هذه الحالة بقوله:

(يستدل من الإفادات التي تيسرت لي من مصادر مختلفة، أن الفلاح العربي في حالة يأس وقنوط فليس لديه رأسمال لمزرعته، بل بالعكس يرزح تحت عبء ديون طائلة، والآجار المطلوب منه أخذ يتصاعد، وهو مكلف بدفع ضرائب فادحة. بلغ معدل ما يدفعه من الفائدة على ديونه درجة غير قابلة للتصديق). وإلى جانب الديون، ولفرض حصار اقتصادي على الفلاحين، عمدت الأجهزة الصهيونية بالتعاون مع الإدارة الانتدابية على ضرب المحاصيل الزراعية التي ينتجها المزارعون العرب، ولعل من أشهر الأمثلة المعروفة في هذا المجال، قيام اليهود بشراء كميات كبيرة من السمسم من الخارج ودون دفع رسوم جمركية على الاستيراد، في حين فرضت الإدارة الانتدابية جمارك محلية عالية على العرب الذين يزرعون السمسم، وعندما ارتفع سعره، قام اليهود بإغراق الأسواق المحلية بكميات كبيرة منه وبأسعار أقل من

السعر المقدم من الفلاحين العرب، واستخدموا هذا الأسلوب ليحولوا دون استخدام السمسم المحلي في صناعة زيت السمسم في المصانع اليهودية.

قادت هذه المشاكل المفروضة على الفلاح الفلسطيني إلى تسهيل عمليات الاستيلاء على الأراضي، وطرد الفلاحين منها.

بيد أن العامل الأهم في نجاح اليهود في تسجيل ملكية الأراضي باسمهم، هو قيام ملاكين إقطاعيين عرب غير فلسطينيين ببيع أراضيهم لليهود، وهم خارج فلسطين. وقد حصل هؤلاء الإقطاعيين على هذه الأراضي تحديداً سنة ١٨٦٩ عندما اضطرت الدولة العثمانية لبيع أراض أميرية لتوفير بعض الأموال لخزينتها، فقامت بشرائها عائلات لبنانية وسورية غنية، وقد مثَّل ذلك وجهاً آخر للمأساة. فقد باعت هذه العائلات ما مجموعه ٦٢٥ ألف دونم.

ومن أشهر الأراضي التي بيعت لليهود بهذه الطريقة، أكثر من ٢٠٠ ألف دونم من أراضي مرج ابن عامر، وهي من أجود وأخصب الأراضي الزراعية في فلسطين، وباعها آل سرسق اللبنانيون، الذين تولوا أمر إدارتها وزراعتها زمن

العثمانيين. وتسبّب ذلك في تشريد ٢٧٤٦ أسرة عربية هم أهل ٢٢ قرية فلسطينية، كانت تفلح هذه الأراضي لمئات السنين.

وأراضي الحارثية قضاء حيفا التي اشترتها الشركة اليهودية للأراضي / الكارن كايمت/ من اسكندر سرسق في بيروت وتبلغ مساحتها (١٢) ألف دونم، وكانت تزرعها عشيرة الزبيدات المؤلفة من نحو / ٦٠ / عائلة فلاحة.

وتكررت المأساة عندما باعت عائلات لبنانية أخرى حوالي ١٢٠ ألف دونم حول بحيرة الحولة شمال فلسطين، كما باعت أسرتان لبنانيتان أراضي وادي الحوارث (٣٢ ألف دونم) مما تسبب في تشريد ١٥ ألف فلسطيني. ومن العائلات التي قامت ببيوع كبيرة للأراضي لليهود في أثناء الاحتلال البريطاني: آل سلام، وآل تيان، وآل قباني، وآل يوسف، والصباغ، والتويني، والجزائرلي، وشمعة، والقوتلي، والمارديني، وكلها أسر لبنانية أو سورية. وقد بلغت نسبة الأراضي الزراعية التي باعها الملاك الإقطاعيون الغائبون خارج فلسطين خلال الفترة ١٩٢٠-١٩٣٦ ما نسبته ٥٥,٥% مما حصل عليه اليهود من أراض زراعية. وعلى الرغم مما يتحمله من قام بهذه البيوع

من أبناء هذه العائلات من مسؤولية، فإن اللوم لا يقع بشكل كامل عليهم وحدهم، إذ إن السلطات البريطانية منعتهم من الدخول عملياً ورسمياً لاستغلال هذه الأراضي، بحجة أنهم أجانب، وذلك بعد أن تم فصل فلسطين عن سوريا ولبنان وفق تقسيمات سايكس- بيكو بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي.

كما منح الاحتلال البريطاني نحو ٣٠٠ ألف دونم لليهود من الأراضي الأميرية دون مقابل، ومنحهم ٢٠٠ ألف دونم أخرى مقابل أجر رمزي.

بالإضافة لذلك عمدت بريطانيا إلى جانب التضييق الاقتصادي، والاستيلاء على الأراضي إلى إهمال التعليم ونشر الثقافة في الوسط الفلاحي، فلم تصرف الحكومة البريطانية المبالغ الكافية لتعليم الفلسطينيين في المدن والقرى. ففي عام ١٩٣١ لم تصرف أكثر من ٧% من نفقاتها في هذا الحقل المهم، رغم وجود فائض مالي كبير لديها.

واعترفت الإدارة البريطانية بأن الكثير من القرى العربية قدمت طلبات لفتح المدارس فيها، مع تعهد أهل هذه القرى بدفع تكاليف الإنشاء، إلاّ أن الحكومة رفضت ٥٠ % من

مجموع طلبات دخول المدارس الموجودة ولم تقبل بفتح مدارس جديدة، بهدف تجهيل الأجيال الفلسطينية.

وفي (٩٠٠) قرية فلسطينية كان هناك (١٥) مدرسة للبنات فقط، و(٢٦٩) للأولاد، وكان هناك (٥١٧) قرية لا يوجد فيها مدارس.

هذه السياسة السلبية تجاه التعليم لم تؤت ثمارها بشكل كامل للانتداب، فهي لم تمنع الفلاحين من أخذ العلم اليسير عن طريق شيوخ المساجد، والقوَّالين الذين كانوا يروون قصص التراث، ويلقون قبولاً من الفلاحين، فرغم بساطة هذه الثقافة إلاّ أن الفلاح الفلسطيني تمتع، وبشهادة البريطانيين أنفسهم، بوعي سياسي عالٍ. فقد جاء في تقرير لجنة شو ما يلي: الادعاء بأن الفلاح لا يهتم شخصياً بالشؤون السياسية لم يؤيد اختبارنا في فلسطين، ولا يستطيع من تجول في البلاد كما تجولنا، وسمع أصوات الهتاف التي قاطعت عبارات كثيرة، ورُددت في الخطب التي ألقاها رؤساء القرى والشيوخ، أن يرتاب بأن القرويين والفلاحين على حد سواء يهتمون اهتماماً حقيقياً وشخصياً في سياسة

إنشاء الوطن القومي، وفي مسألة ترقية مؤسسات الحكم الذاتي في فلسطين، ولذا نرى أن الفلاحين العرب يهتمون في الأمور السياسية أكثر من كثير من أهالي أوروبا.

وحملت لجنة «هايكرافت» التي أجرت تحقيقها عن الوضع في فلسطين في العشرينيات، الانطباع نفسه فقالت عن طولكرم: «في مركز إسلامي صغير من هذا النوع نجد لدى الناس ذهنية سياسية تفوق ما يقابلها في قرية إنجليزية، ونجد أن بحث الأمور السياسية هو محور اهتمامهم الفكري الأكبر إن لم يكن الوحيد.

أما آخر القضايا التي ينبغي الحديث عنها ضمن سياسة الانتداب لإنشاء وطن قومي لليهود، فهي قضية فتح البلاد أمام الهجرة اليهودية، وكان هناك نوعان من الهجرة، هجرة شرعية تتم تحت رعاية بريطانيا وإشرافها، وهجرة غير شرعية كانت تتم بصورة متعددة. منها التسلل عن طريق البحر، أو الدخول ببطاقات السياحة، ثم التحول إلى مواطنين... . الخ.

حركة عز الدين القسام في فلسطين

-المراحل العامة-

بعد دخول الشيخ عز الدين القسّام فلسطين، وفي ظل الظروف الذي تحدثنا عنها، عمل على بناء حركته النضالية مقتنعاً بضرورة التهيئة والإعداد النفسي للثورة، ومعتمداً على عناصر مخلصة من الفلاحين والعمال القاطنين مدينة حيفا، ومن باقي عناصر وفئات الشعب المؤمنين بضرورة العمل الجدي والمخلص. ولا مجال للشك في أن تجربة الشيخ القسّام في فلسطين أكثر زخماً من مثيلتها السورية، وهي ذات طابع مختلف عنها، فرغم التقائهما في أنهما مقاومة مباشرة ضد الاحتلال الغربي للوطن العربي، إلاّ أن فلسطين واجهت ظروفاً أكثر صعوبة وحرجاً مما واجهته سورية، إذ إن التحدي لم يكن موجهاً من قبل الانتداب البريطاني فقط، بل وقف معه تحد أشد خطورة على مستقبل البلاد وتاريخها، وهو المشروع الصهيوني بمراميه وأهدافه المعروفة.

وفي مواجهة هذا التحدي المزدوج، كانت حركة الشيخ القسام النضالية الممتدة من بداية عمله في مدرسة البرج الإسلامية، وحتى استشهاده في أحراش قرية يعبد (قضاء جنين) سنة ١٩٣٥.

وقبل أن نستعرض تاريخ حركة القسام ومراحلها، لابد من الحديث عن جانب مهم فيها، وهو شخصية الشيخ القسام وتكوينه الفكري، حيث نتمكن من خلال هذا الجانب فهم بعض القضايا حول الحركة واستيعابها.

وتكمن أهمية دراسة الجانب الذاتي للقسّام في كونه صانعاً للحركة، ومبلوراً لخططها وأفكارها، وهذا ما قاد في النهاية إلى صبغها بصبغته، فأصبح اسمه رمزاً لها، وبات من العسير الفصل بين خصائصه الذاتية ومراحلها العامة.

بالطبع لا تعني خصائصه الذاتية طباعه وأخلاقه والأشياء التي يحب أو يكره، بل نتكلم عن ثلاث خصال هي في مجموعها عوامل شاركت في صنع الأحداث، وبناء أسس الحركة وهي:

الوعي. - الثورية. - الشعبية.

الوعي - فترة العمل في مدرسة البرج الإسلامية:

منذ وصول القسّام حيفا، وحتى قيام الجمعية الإسلامية بتأسيس مدرسة البرج الإسلامية، لم يمارس أي عمل في المدينة، وإنما كان وأتباعه يعيشون مثل عشرات السوريين اللاجئين إلى المدينة هرباً من مطاردة الانتداب الفرنسي، على دعم الأهالي وضيافتهم.

وحينما قامت الجمعية الإسلامية بتأسيس مدرسة إسلامية، وهي الجمعية المسؤولة عن إدارة الأوقاف الإسلامية في منطقة حيفا، دعت الشيخ عز الدين القسّام للتدريس في هذه المدرسة، وكان القسّام قد تعرف على أعضاء الجمعية عن طريق قريبه الحاج أمين نور الله. وفي البداية درّس في مدرسة الإناث الإسلامية، ثمَّ انتقل للتدريس في مدرسة البرج الإسلامية للذكور.

وخلال تدريس الطلاب ربط القسّام النشاط المدرسي للتلاميذ بسيرة الأبطال العرب أمثال صلاح الدين الأيوبي، بهدف تقريب الطلاب من فكرته حول قادة النضال،

وربطهم بقادته وأبطاله من عظماء العرب عن طريق النشاط اللامنهجي.

وحرص القسّام أثناء تدريسه لطلابه، على لفت أنظارهم إلى الدور المستقبلي الذي ينتظرهم، فكان يسألهم عما يريدون أن يكونوا في المستقبل، وكان الطلاب يتيمنون بمهن آبائهم إلاّ واحداً قال أنه يريد أن يصبح قائداً مسلماً يعمل في سبيل الله والوطن. فما كان من الشيخ القسّام إلاّ أن شجعه حتى لفت أنظار طلابه، وباتوا يعتقدون أنه من دعاة هذا الخط والسبيل.

احتل الشيخ القسّام مكانة مرموقة في أوساط سكان مدينة حيفا، واتجهت الأنظار إليه لتقديمه أسلوباً جديداً في التدريس، مزج فيه بين المبادئ الأساسية للمنهج الدراسي وبين التحديات الخطيرة التي تواجه العرب، فنال بذلك سمعة طيبة بين الأهالي، لا تقل عن أعظم رجال حيفا وأقدرهم من سكانه الذين عاشوا فيها عشرات السنين.

خاصية الوعي - فترة العمل في جامع الاستقلال وجمعية الشبان المسلمين:

في عام ١٩٢٥ عُيِّن الشيخ القسّام خطيباً ومدرساً في جامع الاستقلال في مدينة حيفا. فامتلك أداة فعالة استخدمها استخداماً ناجحاً، ووجهها في إطار مخططه النضالي بصورة عملية.

وبرز وعي القسّام وإدراكه خطورة المرحلة بصورة جلية خلال عمله في المسجد، إذ استطاع بخطبه خلال سنوات قليلة أن يجعل المسجد من أكثر مساجد المدينة شهرة ويؤمه المصلون من مختلف أنحاء القضاء، واستفاد القسّام من الإقبال الشعبي في عدة محاور:

- التنبيه إلى الخطر الصهيوني.
- الدعوة إلى النضال ضد الاستعمار وحلفائه والتهيئة النفسية للثورة.
- اختيار العناصر الطليعية للتنظيم.

وساعد على نجاحه في هذه الأمور قدرته الفائقة على الخطابة، وبلاغته والموضوعات المهمَّة التي يتطرق إليها أثناء الخطبة، وعلمه الديني الواسع، وقدرته على تخير

الألفاظ والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فكان تأثيره على سامعيه واضحاً، محاولاً أن يغرس في قلوبهم حب الوطن، والإيمان بالحق، والنضال في سبيل الله. فقد كانت خطبه كلها مزيجاً من الدعوة الصريحة إلى الانتفاض على الظلم، والتفاني في التضحية، والتدليل على أن العربي غير مكلف بالخضوع لسلطان أجنبي عن أمته.

التنبيه إلى الخطر الصهيوني

في إحدى خطب الجمعة عام ١٩٢٧، حذَّر القسّام المصلين من التساهل مع الهجرة اليهودية ووصفها بأنها «تحتل البلاد وأنتم فيها»، ودعا إلى استقبال المهاجرين اليهود القادمين بعربات الانتداب البريطاني وحمايته « كعدو لا كمهاجر أو ضيف ». ويأتي هذا التنبيه من القسّام في فترة كان ينظر فيها للمشروع الصهيوني على أنه حلم، ولم تكن الحركة الصهيونية قد وصلت إلى مراحل متقدمة من القوة العسكرية والنفوذ الاقتصادي في فلسطين. كما أن زعامة الحركة الوطنية الفلسطينية لم تكن على تلك الدرجة من الوعي لتدرك خطورة وجدية المشروع الصهيوني، بل

اعتمدت في مواجهته على الاحتجاج لدى المندوب السامي ورفع العرائض إليه، دون أن تتجه نحو توعية الشعب الفلسطيني بالأخطار الماثلة أمامه كما فعل القسّام.

وهي أيضاً لم تمتنع عن مجاملة المندوب السامي، ومشاركة الإنكليز في الحفلات الرسمية التي كانوا يقيمونها بين حين وآخر، فأدت هذه السياسة المتساهلة مع الأعداء إلى الحد الذي اعتبر البعض قول القسّام، بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم، مدعاة للسخرية.

لم يقتصر القسّام في خطبه على التحذير من الصهيونية وأطماعها، بل كان يتطرق إلى أطماع المستعمرين الغربيين في باقي أجزاء الوطن العربي. فالانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، والبريطاني لفلسطين والعراق وشرقي الأردن، وهناك النفوذ القوي لها في مصر والسودان... الخ، وأمام هذه الوقائع، جعل القسّام تجارب الثورة في سورية وقادتها المناضلين نماذج للحديث في خطبه، فكان كثيراً ما يتحدث عن أبطال الثورة في سورية ضد الفرنسيين، دون أن يذكر أنه كان من عدادهم وأنه قاتل معهم.

الدعوة إلى النضال ضد الاستعمار وحلفائه والتهيئة النفسية للثورة

بعد أن قدم الشيخ القسام إلى حيفا، بدأ بالإعداد النفسي للثورة، على خلفية النية المبيتة لديه، ولدى رفاقه السوريين الذين دخلوا المدينة معه في مواجهة البريطانيين واليهود في فلسطين، وقد ساعده في هذه المرحلة عدد من العاملين المؤمنين بالعروبة، ومن هؤلاء الشيخ السوري كامل القصاب وهاني أبو مصلح اللبناني الأصل.

وكان القسّام في تهيئته الشباب للانضمام لحركته يكثر من نصحهم، وكانت تتردَّد على شفتيه في كل مناسبة آيات من كتاب الله الحكيم تتعلق بالنضال والاستشهاد والقتال، وجعل القسّام من دروسه في المسجد التي تقام عادة بين الصلوات المفروضة، وسيلة لإعداد المناضلين، وصقل نفوسهم وتهيئتها للمقاومة والقتال، معتمداً اختيار الكيفية دون الكمية، فكانت للشيخ القسّام حلقات دروس يعلم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرقاً لضرورة النضال ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على

أرض فلسطين، وكان يركز على الاستعمار البريطاني وعلى الصهيونية، ولقد استجوبته السلطات البريطانية لعدة مرات. ولكن وبسبب شعبيته الكبيرة كانت الحكومة تتجنب اعتقاله. وكان من نتيجة وطنية الشيخ ودعوته للنضال أن التفَّت حوله جماعة من الرجال دفعتهم الوطنية والإيمان لمثل ذلك.

ولم يكن هدف الدروس الدينية للقسام اختيار مقاتلين فقط، بل اتبع أسلوب مهاجمة السماسرة وباعة الأراضي لليهود (أمثال محمد طاهر الحسيني وموسى كاظم الحسيني وموسى العلمي وراغب النشاشيبي وإبراهيم الفاهوم ويوسف الفاهوم وتوفيق الفاهوم ويعقوب الغصين، وهؤلاء من أبرز الشخصيات الفلسطينية التي قادت الحياة السياسية في فلسطين قبل النكبة). وكان يجهر بكلمة الحق يصدم بها الباطل وأهله والسمسرة والدناءة في نفوسهم وصفوفهم، وشعر هؤلاء بأن القسام يشد أزر الفقراء والبؤساء عليهم، ويفشل مشاريع سمسرتهم، ولذلك أخذوا ينشرون حوله الأقاويل والتهم، ويدخلون دار الحكومة لتقديم هذه التهم للإنكليز، في محاولة للتخفيف من وطأة كلماته عليهم.

وفي ١٧ حزيران ١٩٣٠، وفي أعقاب إعدام الأبطال الثلاثة: عطا الزير، محمد جمجموم وفؤاد حجازي، بسجن عكا، شوهد القسام متجهم الوجه يغالب الدمع ويجالده، وفي عينيه بريق رهيب وأوصاله ترتجف غضباً، وهو لا يكاد يعي ما حوله، يسرع الخطى إلى المسجد فيعتصم فيه، وهناك ألقى خطبة نارية على من حوله، ومما قاله فيها:

«يا أهل حيفا... يا مسلمون. ألا تعرفون فؤاد حجازي؟ ألم يكن فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجموم إخوانكم، ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال؟ إنهم الآن على المشانق. حكم عليهم الإنجليز بالإعدام من أجل اليهود. أيها المؤمنون: أين نخوتكم؟ أين أيمانكم؟ أين هي مروءتكم؟. إن الإنجليزية الغربية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا، تريد إبادتكم أيها العرب، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنورة. ويحرقوا قبر الرسول، إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم وبناتكم وأخواتكم، وتحويلهن إلى خدم وسبايا لهم».

هذا نموذج من نماذج كثيرة لخطابات القسّام التي تدعو إلى النضال، وكلها تدل على الروح النضالية لدى القسّام، ودعوته الصريحة للقتال والعمل الجاد، وكان يطلب من الناس جهراً شراء السلاح والتدرب عليه، فإن لم يستطيعوا شراء السلاح فعليهم أن يقاوموا العدو ويقتلوه ويأخذوا سلاحه.

في أواخر عام ١٩٣٤ كانت فلسطين تمر بظروف صعبة جداً، فقد تزايدت الهجرة اليهودية بدرجة كبيرة للغاية، وازداد التسلط البريطاني على الفلاحين وأراضيهم، وتزامن هذا مع تراجع ملحوظ في صفوف الحركة الوطنية واتساع هوة الخلافات العائلية والحزبية. وكان القسّام في هذه الفترة يشتعل غضباً وثورة، فأصبحت كلماته من على منبر جامع الاستقلال تلتهب وكأنها حمم من النار.

وبهذه الكلمات وهذا التحدي المباشر من القسّام، وبإرادة وإيمان الفلسطينيين، نجح في تهيئة عناصر كثيرة للثورة من رواد جامع الاستقلال، وجلهم من الفئات المؤمنة بالعروبة والقضية. فأصبحت كلماته تتردد على الألسنة، وهي أقوال تدعو جميعها للنضال، مثل النضال رفيقه الحرمان -

المناضل رائد قومه والرائد لا يكذب أهله - أيها الرجال! يا نساء وشباب فلسطين! البلاد في خطر، وآيات قرآنية دالة على معاني القتال.

وعمل الشيخ إلى جانب الخطابة في مسجد الاستقلال على توسيع قاعدة اتصالاته بالمسلمين من سكان حيفا وقضائها، ومدن فلسطين القريبة منها، فعمل على تأسيس جمعية الشبان المسلمين بحيفا سنة ١٩٢٨، كما تولى وظيفة مأذون شرعي لدى محكمة حيفا الشرعية سنة ١٩٣٠م، وخرج إلى قرى القضاء محرضاً ومحفزاً على النضال.

تأسيس جمعية الشباب المسلمين ونشاط القسام

لم يكن القسام يؤمن بعزل الإسلام عن الجماهير، وقصر المواعظ والدروس الدينية على رواد المساجد. بل كان يتصل بسائر طبقات الشعب، لا فرق بين متدين وغيره، اعتقاداً منه أن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، ويمكن للأمة أن تستفيد منهم بعد الإصلاح. لذلك وجدناه من أوائل المتحمسين لتأسيس جمعية الشبان المسلمين، فقام في

شهر أيار من عام ١٩٢٨ بتأسيس فرع لهذه الجمعية في مدينة حيفا بالتعاون مع صديقه رشيد الحاج إبراهيم رئيس فرع البنك العربي في المدينة.

ومن خلال عمل القسّام في جمعية الشبان المسلمين مهد الطريق أمام مجموعة واسعة منهم للعمل الجاد والمثمر لصالح الوطن وقضيته، كما أنه وثَّق اتصالاته من خلال الجمعية بقيادات المدن الفلسطينية الأخرى، وكان من نتيجة نشاطه هذا انضمام رموز الجمعية من مدن أخرى إلى تنظيمه المقاوم للاحتلال.

واظب القسام خلال وجوده في الجمعية على إعطاء محاضرة دينية مساء كل يوم جمعة، وكان يسهر الليل في إلقاء المحاضرات وترتيبها، ويذهب كل أسبوع بفئة من الأعضاء إلى القرى، فيحاضر وينصح ويرشد ويعود. وقد أنشأ عدة فروع للجمعية في أكثر قرى اللواء الشمالي في فلسطين، وكانت هذه الفروع تجمُّعات للقرويين، وأمكنة مختارة لوحدة كلمتهم ومداولة آرائهم، وتقرير دفاعهم عن أنفسهم وأراضيهم، ومن هذه الفروع كان فرع صفورية الذي

لعب دوراً بارزاً في إنجاح العمليات العسكرية ضد المستعمرات اليهودية في الشمال. بالإضافة لفروع أخرى في زرعين وطوباس.

بناء على ما تقدم نستطيع القول إن نشاط الشيخ القسّام في جمعية الشبان المسلمين كان له دور في إنجاز مهمة التهيئة والتحضير للثورة، ونجح الشيخ في جعل انتسابه للجمعية تغطية لأعماله السرية.

الشيخ القسام.. - مأذوناً شرعياً -

حسب وثائق المجلس الإسلامي الأعلى والمحاكم الشرعية في فلسطين، تولى الشيخ عز الدين القسّام وظيفة مأذون شرعي لدى محكمة حيفا في عام ١٩٣٠م. بعد أن تقدم لامتحان خاص بطلبة هذه الوظيفة وكان عددهم (١٤) شيخاً، ولا زالت ورقة الإجابة التي كتبها الشيخ محفوظة إلى الآن في أرشيف قسم إحياء التراث الإسلامي بالقدس، وكان الشيخ القسّام أول الناجحين، تلاه الشيخ محمد توفيق العنبتاوي.

وكان هدف القسّام من تولي هذه الوظيفة كما يبدو هي رغبته في الاتصال بالناس والتحدث إليهم في المناسبات كلها، والتأكيد على أن الإسلام ليس الاعتكاف في صومعة، والتحوصل دون أفراح الناس وأتراحها، بل هو دستور حياة الناس اليومي، ومرشدهم في أمورهم كلّها.

زيارة القرى والدعوة فيها للمقاومة

في إطار التهيئة النفسية للثورة، خرج الشيخ القسّام إلى قرى حيفا وجنين وقرى شفا عمرو – صفورية في الجليل الأدنى. وكان يتردد على سيلة الظهر، بورين، برقين، الرينة ونورس، واستخدم مساجد هذه القرى ومراكز التجمع فيها في الدعوة إلى مقاومة بيوع الأراضي، ومحاربة السمسرة والسماسرة. ويروي أحد شيوخ قرية السيلة الحارثية قضاء جنين أن الشيخ القسام قدم في عام ١٩٣٤م إلى القرية وبرفقته الشيخ كامل القصاب، والشيخ فرحان السعدي، وأعطى درساً دينياً وطنياً، دعا فيه إلى محاربة السماسرة، وباعة الأراضي لليهود.

وأقام علاقات قوية مع منطقة العبهرية وفيها عرب منسي، أبي زريق والسعديين، وزار عرب الرمل مرة وتحدَّث معهم عن ضرورة مقاومتهم بالقوة للشرطة في مسائل الأرض المتنازع عليها، والتي يحاول اليهود الاستيلاء عليها وطردهم منها، وكانت زيارته في أوائل عام ١٩٣٥م.

وزار القسّام يعبد وألقى دروساً في مسجدها، وانضم إليه المناضل معروف الحاج جابر، كما حظي باحترام وتقدير أهل القرية.

وفي ظل هذه الزيارات بنى القسّام علاقات ناجحة مع قرى عديدة، لا مجال لحصرها، ساعدت في تجنيد عدد من الشباب، وتهيئة قواعد في هذه القرى للعمل العسكري، واعتمد القسّام في اختياره للفرد على مدى استجابته وفهمه للدعوة التي كانت توجه في دروسه وحلقاته التي كانت تعقد في المسجد أو في بيوت رفاقه الموثوق بهم.

اختيار العناصر الطليعية للتنظيم

من الراجح أن عصبة القسّام السرية بدأت تنسج خيوطها الأساسية في عام ١٩٢٥م، كما تذكر أغلب المصادر، ولكن العصبة لم تبدأ عملها العسكري بالتدرُّب على السلاح، والقيام بعمليات عسكرية ضد الاحتلال إلاّ بعد عام ١٩٢٩م.

وكان الأسلوب الذي اتبعه القسّام في تنظيم الأفراد يعتمد على مراقبته المصلين وهو يخطب على المنبر، ثمّ يدعو بعد الصلاة من يتوسم به الخير لزيارته، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين ضمن مجموعات سرية لا تزيد عن خمسة أشخاص، ثمّ اتسعت هذه المجموعات لتضم (٩) أشخاص. وكان يشرف على الحلقة الواحدة نقيب يتولى القيادة والتوجيه، ويدفع كل عضو مبلغاً لا يقل عن عشرة قروش شهرياً، وإذا استعرضنا الخلفية الاجتماعية لأفراد عصبة القسام النضالية وحصيلتهم الثقافية والعلمية، فإننا

سنجد عدة مزايا انفردت بها العصبة جعلتها أقدر من غيرها من الأحزاب والأطر السياسية الموجودة في فلسطين آنذاك، على مخاطبة الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني باللغة المفهومة والواضحة، وبالتالي سنجدها الأكثر قدرة على استقطاب تعاطف الجماهير وحبها ومشاركتها في العمل.

فالقسّام كان يعتقد أن المدنية الجديدة التي غزت العالم العربي أذابت أغلب الفئات المثقفة بالثقافة الغربية، وجعلتها بعيدة عن روح الفطرة السليمة، فلم تستطع التصدي للغرب وعساكره، لأنها أولاً مبهورة بمثله، ولأنها ثانياً متمسكة بالقيم المادية لا الروحية. وهذا الأمر جعل مؤيدي القسام في غالبيتهم من عمال وموظفي القطارات في حيفا، ومن عمال الحجارة في المقالع. أي إن دعوة الشيخ القسام اقتصرت على الطبقة العامة من عمال وفلاحين، فلم تتجاوزها لا إلى الشبان ولا إلى التجار ولا إلى غيرهم من الطبقات والعناصر الأخرى التي يمكن إدخالها في المعترك. وذلك لأن الشيخ كان يرى الخير في الغاية التي يعمل لها هو في هاتين الطبقتين: طبقة العمال من أهل المدن، وطبقة الفلاحين

لأنهما أخلص وأكثر انقياداً واستعداداً للبذل والتضحية، ولذلك حصر عمله في دائرتهما.

في ٢٤-٩-١٩٢٨ وقع حادث في القدس وكان يوم عيد الغفران عند اليهود. فقد حاول اليهود وضع ستار بين الرجال والنساء أثناء صلاتهم عند حائط البراق الذي يعتبره اليهود حائط المبكى، والذي يعد الحد الغربي للحرم القدسي الشريف الذي يضم المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة ومسجد عمر بن الخطاب. فاحتج العرب على ما فعله اليهود واعتبروه خروجاً على المألوف.

دفع حادث البراق الشيخ القسّام ورفاقه في العصبة إلى الانتقال من مرحلة الدعوة للمقاومة إلى مرحلة التنفيذ العملي لها. وبينما كان اليهود حاقدين ومحتاطين لأنفسهم إذ كانوا يبنون بناياتهم على شكل عسكري، كان العرب غير ذلك. ولقد استغل اليهود هذه الميزات كلها، وكثيراً ما كان العرب يسقطون قتلى وجرحى. وإزاء ذلك طلب من الشيخ أن ينتقل من الكلام إلى العمل، وطلب منه أن تتسلح العصبة وتتدرب، كان ذلك عام ١٩٢٨م، فاشتروا بندقية وأحضروا مدرباً كان

اسمه محمد أبو العيون. وكانت تبدأ الجلسة بأن يلقي الشيخ دروسه ثمّ تتحوّل الدروس من دروس دينية إلى تحريض على النضال. وكان المدرب يقوم في آخر الجلسة بتدريب الموجودين على البندقية واحداً واحداً.

وفي ظل الأوضاع المشحونة بالتوتر والكراهية، انفجر الموقف في ١٤ أب ١٩٢٩ ونشبت ثورة البراق التاريخية، حين قام اليهود بتنظيم مظاهرة ضخمة في تل أبيب بمناسبة ذكرى تدمير الهيكل، وقاموا بمظاهرة أخرى في اليوم التالي في شوارع القدس متوجهين نحو حائط المبكى ورفعوا العلم الصهيوني، وأنشدوا النشيد القومي (الهاتكفا)، وشتموا العرب.

في اليوم التالي، والذي صادف ذكرى المولد النبوي الشريف، وكان يوم جمعة، تجمَّع العرب المسلمون في باحة المسجد الأقصى وانطلقوا بعد الصلاة في مظاهرة كبيرة حطموا فيها أدوات اليهود عند الحائط وأحرقوا صلواتهم الموضوعة في ثقوبه. واستمرت الاشتباكات الدموية بين العرب واليهود مدة أسبوع كامل، سقط فيه عشرات القتلى والجرحى.

وقد رفض الشيخ القسّام الاشتراك في هذه الثورة بداعي أن برنامج توعيته لم يأخذ درجة الانتشار في جميع أوساط الأمة وفي جميع مدنها، وكذلك لأن رجاله لم ينهوا تدريبهم واستكمال تسلحهم، ولم يكن قد مضى على تشكيل أول قيادة للعصبة سوى بضعة شهور، وكانت هذه القيادة قد تشكلت عام ١٩٢٨م من الشيخ القسّام وأربعة من المجاهدين هم: العبد قاسم، محمود زعرورة، محمد صالح وأبو إبراهيم الكبير. ومع ازدياد قوة العصبة واتساع قاعدتها قسم الشيخ أتباعه إلى خمس وحدات عسكرية منظمة:

الأولى : وحدة شراء السلاح. وكان منها حسن الباير ونمر السعدي.

الثانية : وحدة التدريب العسكري.

الثالثة : وحدة التجسس على اليهود والإنكليز لمعرفة خططهم، ومن أفرادها الشيخ ناجي أبو زيد.

الرابعة : وحدة الدعاية للثورة في المساجد والمجتمعات.

الخامسة : وحدة الاتصالات السياسية.

بعد أحداث البراق عام ١٩٢٩م بدأ التساؤل داخل صفوف الحركة الوطنية حول الطريقة الناجحة في مواجهة الانتداب والصهيونية، أهي تنظيم اضطرابات جديدة بشكل عفوي، أم القيام بتدبير كمائن والهجوم على أفراد ومستوطنات معينة؟ ويتضح من مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، أن أغلب الزعامات ذات الارتباطات العائلية، وهي التي تشكل الغالبية العظمى في صفوفها، اختارت الأسلوب القديم نفسه «النضال السياسي»، بينما اختارت قوى أخرى طريق الضرب بعنف لكل من الصهاينة والبريطانيين، وعملت هذه القوى في اتجاهين:

الأول: عفوي غير منظم، ويعرف هدفه جيداً. والثابت تاريخياً أن هذا الاتجاه لم يكن من عصبة القسّام، إذ هو التجمع الوحيد قبل ثورة ١٩٣٦م الذي عرف التنظيم العسكري. ومنذ بداية الثلاثينيات كان هناك نشاط عسكري واضح للعصبة في مجال التدريب على استعمال السلاح، ومن ثمّ تنفيذ العمليات الفدائية ضد المستعمرات الصهيونية. وكانت التدريبات العسكرية تتم في رحلات ليلية، كما كان

القسّاميون يقومون بجولات استطلاعية يتمرنون خلالها على إصابة الهدف. وكان القسّام يشارك بنفسه في هذه التدريبات، حيث كان يخرج ليلاً إلى جبل الكرمل، ويدرب الأعضاء على الأسلحة ويوجههم في أساليب الكفاح المسلح.

كما أن القسّام استفاد من عضويته في هيئة جمعية الشبان المسلمين للتستر على التدريب العسكري تحت حجة النشاط الرياضي والكشفي، وكثيراً ما كان ينام على كرسي الجمعية ولا يعود إلى البيت. وقد أشار تقرير سري مرفوع في أيار ١٩٣٢م للوكالة اليهودية من أحد جواسيسها في حيفا إلى وجود تدريبات عسكرية بين العرب وشرائهم الأسلحة بشكل نشط وملحوظ.

تنفيذ العمليات الفدائية ١٩٣١-١٩٣٢

بعد استكمال التهيئة للنضال وإعداد المقاومين، بدأت عصبة القسام تنفيذ عمليات فدائية موجهة ضد المستوطنات الصهيونية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج لوقف هجرتهم إلى فلسطين، ووقف التبرع للحركة الصهيونية.

وكانت أولى العمليات موجهة ضد مستعمرة الياجور، ففي ليلة الخامس من نيسان عام ١٩٣١م، قامت فرقة قسامية بعمل كمين على الطريق الرئيسي المؤدي للمستوطنة، وبينما كانت قافلة سيارات يهودية تسير باتجاه المستوطنة، وتقل عدداً من الشبان والفتيات اليهود العائدين من إحدى الحفلات، أطلق المجاهدون النار عليهم، فقتلوا ثلاثة منهم وعادوا من حيث أتوا، دون أن يتركوا أي أثر يدل عليهم .وأعلنت الحكومة عن مكافأة قدرها أربعمئة جنيه لمن يدلي بمعلومات تقود للقبض على الفاعلين، ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح.

ثمّ نفذ القساميون عمليتهم الثانية، فأطلقوا بتاريخ ١٩٣١/٤/٧م النار على موشي فليبتس في مستعمرة نهلال، وأصابوه برجله.

وفي السادس عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٢م قام القساميون بقتل يوسف بورنشتيان في مستعمرة بلفوريا. ثمّ في الخامس من آذار من العام نفسه قتلوا شموئيل جوترمان في كفار هاسيديم. وفي ١٩٣٢/٤/٣٠م كانت هناك محاولة قتل في مستوطنة كفار يحزكئيل، وأُصيب اثنان من اليهود بجروح.

وتوج المناضلون عملياتهم الفدائية، بعملية جريئة نفذت في مستوطنة نهلال للمرة الثانية، وقد أثارت هذه العملية البريطانيين والصهاينة وأفقدتهم صوابهم. ففي ليلة ١٩٣٢/١٢/٢٢م قتل يوسف يعقوبي وابنه داود من جراء انفجار قنبلة انفجرت في الغرفة التي كانا فيها. وتأتي أهمية الحادثة من اهتمام الصهيونيين بنهلال أولاً، ومن تطور القدرة القتالية لدى عصبة القسام ثانياً.

وقد حوّل اليهود جنازة يعقوبي إلى مظاهرة كبيرة، كان على رأسها أرلوزورف رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، وأعلنت الحكومة عن تخصيصها مكافأة قدرها خمسمئة جنيه فلسطيني لأي شخص يقدم إخبارية تؤدي إلى إلقاء القبض على منفذي العملية.

ورغم جهود الشرطة المكثفة لمعرفة الفاعلين، إلاّ أنها لم تستطع الكشف عن المناضلين إلاّ بالصدفة، فقد قامت بعد ستة شهور من الحادثة بتفتيش قرية صفورية، وكانت قبلها قد أعلنت عن شكها بوجود علاقة لجمعية الشباب المسلمين بالحادث، وفي منزل مصطفى الأحمد عثرت

على قنبلة مماثلة لتلك التي انفجرت في نهلال، وصادرت بندقية حربية من المنزل نفسه، فاعتقلت مصطفى الأحمد، ثمّ قامت باعتقال خليل محمد عيسى «أبو إبراهيم الكبير» وأحمد الغلاييني. واتهمتهم بوضع القنبلة، واستمرت التحقيقات، وتمَّ إلقاء القبض على المزيد من الأشخاص منهم: خليل محمد عيسى، حسين محمد حمدي، محمود زعرورة، عز الدين القسام، ذيب ديوان، أحمد الحسن، الحاج مصطفى، والشاب عبد الطه.

وعلى الرغم من كل التحقيقات الطويلة والشهادات التي تم جمعها، فلم يتم تقديم كل المتهمين للمحكمة، وأَسقطت التهم عن القسّام وآخرين لعدم وجود أدلة كافية. ولكن المحكمة حاكمت ثلاثة من القساميين خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول عام ١٩٣٣م وهم: مصطفى الأحمد، وحكمت عليه بالإعدام ونفذ الحكم. أحمد الغلاييني، وحكمت عليه بالسجن مدة (١٥) عاماً، قضاها وخرج عام ١٩٤٤. وبرَّأت ساحة (أبو إبراهيم الكبير). وخلال المحكمة انكشفت أسرار عصبة الشيخ

القسّام، وأصبحت تحركاته ونشاطاته موضع شـك لـدى المخابرات والبوليس البريطاني. وكان لشهادة عبد الطـه أثر سيئ في كشف مكنونات الجماعة، فقد كشف النقـاب عن أسرار المنظمة السرية كافة التابعة لجمعية الـشباب المسلمين في حيفا. كما أنه كشف عن مخططات الجماعة وأهدافها العسكرية. فأدى هذا الأمر مع تنفيذ حكم الإعدام بحق الأحمد إلى إيقاف نشاط العصبة إلى أن يتم تجـاوز المرحلة الحرجة وحالـة الاسـتنفار لـدى المخـابرات الإنجليزية والصهيونية، واستمرت حالة التجميد هذه حتى قرب نهاية عام ١٩٣٥.

وهنا لابد من الإجابة عن سؤال يتعلق بأعمال القساميين العسكرية مفاده: لماذا اختار المقاومون منطقة الشمال لتنفيذ خططهم؟ ولماذا نجحوا في إدخال الرعب إلى نفوس الصهاينة والتأثير عليهم؟ مع العلم أن المناطق الأخرى والتي تركزت فيها القيادات السياسية الرئيسية للحركة الوطنية لم تستطع أن تقوم بالدور نفسه الذي قام به القسّام في الشمال.

إن أسباب النجاح في الشمال تعود لعدة عوامل هي:

١- وجود قوى ثورية شابة في الشمال.

٢- الشروط الجغرافية التي تمكن من تنفيذ العمليات، وفي حالات الضرورة اللجوء إلى سورية عن طريق الحدود الواسعة.

٣- العزلة الجغرافية لتجمعات اليهود والبعد القائم بين الواحد والآخر.

٤- قلة قوات الشرطة في الشمال، والنقص في وسائل الاتصال السريع (هاتف، شوارع) مع حيفا.

٤- عدم وجود عائلات كبيرة متخاصمة، والتي تتحارب فيما بينها على السيادة. ولو وجدت هذه العائلات في الشمال لتحاربت فيما بينها لنيل السيادة على الجماعات المقاتلة.

٦- زيادة امتلاك اليهود للأراضي في الشمال.

ولقد كان من مفارقات القدر أن تتجمع هذه العوامل جميعها في حيفا، وأن يكون القسام خطيباً في أحد مساجدها، ومن ثمّ تتأهل الظروف لنشاطه النضالي.

الوعي السياسي والتاريخي
عند الشيخ القسام

كانت حركة القسّام في فلسطين أول حركة تعتمد المواجهة المسلحة الجريئة مع سلطات الاحتلال البريطانية، في حين لم تكن القيادة السياسية لتخلو من الروابط والصلات والمصالح بالإنكليز، مما يمنعها من اعتماد الكفاح المسلح ضدهم. وقد سئل القسّام مرة عن رأيه في أساليب الحركة التقليدية المعتمدة على محاربة الإنكليز بالطرق الشرعية، فأجاب إجابة قصيرة مكثفة: من جرَّب المجرَّب فهو خائن، والمؤمن إذا قال صدَق، وإذا قيل صَدق.

وفي شرحه للجملتين قال: إن الحركة الوطنية لا تستطيع الثقة بالإنكليز مجدداً بعد تجربة الهاشميين في مكة وبغداد، وبعد تجربتها هي منذ الاحتلال حتى الآن، ولا يستطيع المؤمن أن يحاور المستعمر لنيل حقوقه بالإقناع، لأنه يجب أن لا يصدقه، ولا أن يكون صادقاً معه.

ورأى القسّام أن المفاوضات والحلول السياسية لن تضع حداً للعدوان المنظم على فلسطين، فوضع مخططاً للعمل يعتمد على الأسس التالية:

١- بريطانيا أصل الداء وهي عدوة العرب والإسلام.

٢- الحركة الصهيونية وليدة الاستعمار البريطاني، فبريطانيا الرأس، والصهيونية الذنب، وإذا قطع الرأس فلن يبقى للذنب أي اثر. ومن مسؤوليات المقاومين منع بيع الأراضي لليهود.

٣- الثورة الشعبية المنظمة هي السبيل لمنع دولة اليهود.

٤- يجب تعبئة الشعب عن طريق خطباء المساجد، وتدريب القادرين على حمل السلاح.

هذه المواقف والآراء للشيخ القسّام، كان لها دور فعال ومؤثر في تحويل مسيرة النضال الفلسطيني من المزايدة السياسية إلى النضال المسلح، وكانت حركته نقطة تحول في طبيعة وظروف الحركة السياسية في فلسطين.

شعبية القسام

لم يطرح القسام نفسه رئيساً لحزب سياسي أو زعيماً وطنياً، أو ابناً لإحدى العائلات المعروفة، بل طرح نفسه مناضلاً معبراً عن تطلعات أمته بالتحرر من ظلم الاستعمار، فتمتع باستشهاده في سبيل فكرته بتقديس واحترام لم يحلم به أكبر زعيم، وعاش الشيخ حياته بين الناس البسطاء يشاركهم أفراحهم وأتراحهم، يهتم بأحوال الفقراء منهم، ويسعى جاهداً لمحو الأمية من صفوفهم، فقام بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم العمال الأميين الذين يشتغلون في النهار، ولا يتمكنون من التعلم خلاله، وساعده في التدريس بهذه المدرسة الشيخ كامل القصاب. وكان للمدرسة أثرها في نشر الوعي والتعليم في صفوف عمال حيفا الذين هم أبناء القرى المرهقة بالضرائب، أو من الذين طردوا من أراضيهم بقوة السلاح، فكان القسّام يسعى لاجتذاب هؤلاء نحو العمل المنظم والمثمر.

واهتم الشيخ القسّام كثيراً بالشباب الذين دفعتهم قسوة الظروف الاقتصادية والسياسية نحو الانحراف الأخلاقي، فنجح بإعادة الكثيرين منهم إلى الطريق الصواب.

كان لمساره وكلامه بين الشبان تأثير كبير عليهم، والكثيرون منهم تحدثوا عنه كأنه مقدس، لقد عرف كيف يتأقلم مع البسطاء والفاسدين، ووجد لغة مشتركة معهم، كذلك نجح بالتغلغل في أوساط النشطين من القوميين وفرض تأثيره عليهم. وكان يقترب من الفقراء كثيراً، ويكثر من مجالستهم. وحدث مرة أن هزئ منه كبار التجار في حيفا لكثرة مجالسته الفقراء ورفضه الجلوس معهم. وهو نفسه كان أقرب إلى الفقر في حياته، فقد أعال نفسه بقروش قليلة، ولم يترك بعد استشهاده بيتاً ولا ملكاً. وجيرانه يقولون عنه أنه كان يعيش بصعوبة. وتمتد علاقة القسّام إلى الكثيرين، فقد كان حريصاً على التعارف مع الناس، والحديث معهم حول شؤونهم وقضاياهم المصيرية. وهناك الكثيرون من كافة فئات الشعب ممن تحدثوا عن الشيخ القسّام وأخلاقه وطريقته في التعامل مع الناس.

وقد قالوا عنه: كان بعيد الشهرة والإعلان عن النفس، فكان في حيفا كما كان في جبلة وفي جبال اللاذقية، وفي كل مكان نزله، كان عنواناً للأخلاق السامية التي استنارت بنور الإيمان واليقين، فما عرف عنه ما يريب أو يدنس سمعته، أو يدل على انشغاله بالسفاسف والزخارف. فأحرز مرتبة رفيعة ونال مقاماً ممتازاً. ووصفوا القسّام بأنه كان ذا ثقافة واسعة جداً في الشريعة الإسلامية، وأنه كان يعرف كيف يسيطر على قلوب الناس من خلال خطبه. وعُرف عنه قدرته الفائقة على الخطابة، ولباقته البارعة في إدارة دفة الحديث، إلى جانب قوة في شخصيته، وطيب في معشره، ورقة في سلوكه وحديثه. وكان يكره التأجيل والمماطلة وينجز المهمات فوراً. حاضر البديهة وسريع الخاطر، ينفذ ما يقول ولا يكترث لنفسه في شيء، وحياته بسيطة في بيته وملبسه ومأكله.

وقد كان لهذه المزايا والأخلاق دورها في تعاطف الناس معه، وحبهم له وتمثل هذا الحب المشترك في إنجازات شعبية حقيقية، وهناك إنجاز له دلالته الواضحة بهذا الشأن، إذ حوَّل القسّام الاحتفالات بالمناسبات الدينية من مجرد عادات يمارسها الناس دون أن يدركوا معانيها، إلى أيام لا تنسى.

الثورية لدى القسام

كان لحقيقة الإسلام تأثير كبير في نفس القسام، فأخرجته شخصية قوية العزم والإيمان والإخلاص لله والحق، فكان لا يفتر عن النضال بلسانه ويده. جهر بالاستنكار لكل بدعة في الدين ولكل تواقح على الحق، كان هذا دأبه في العهد التركي، وجاهد بسلاحه المستعمر الفرنسي في سورية، ثمّ أُكره على الخروج إلى فلسطين، فبقي سائراً على الخط نفسه ومنتهجاً السبيل والنهج ذاته، والثورة بمفهومه هي الثورة التي تأكل الأخضر واليابس، واعتقد كذلك أنه لا حلَّ لمشكلة فلسطين إلاّ عن طريق الكفاح المسلح. وكان إيمانه بالعمل يفوق كل إيمان، ولم تكن أقواله وخطاباته لتخرج عن مجال التحضير والتحفيز على العمل.

إن ثورية القسام وتشبعه بروح النضال، جعلته أول ثائر في فلسطين يتحلى بالوعي ويتحمل مسؤوليته في قيادة المقاومين، فكان أول من أسّس تنظيماً مسلحاً لقتال اليهود والإنجليز، وكان ثائراً من نوع جديد. فقد كانت استجابته لتمادي أطراف التحالف

الغربي - اليهودي في الاعتداء على الأرض والشعب الفلسطيني، هي الاستجابة المطلوبة، وهي الفعل الحقيقي القادر على رد العدوان، ولولا قلة عدد رجاله مقارنة مع ضخامة قوة الأعداء وقلة سلاحهم لكان للقسّام دور آخر في فلسطين.

الحركة عام /١٩٣٥/ وإعلان الثورة

توقفت حركة القسام عن نشاطها العسكري أواخر عام ١٩٣٢، كما ذكرنا سابقاً، بعد إعدام مصطفى الأحمد في أعقاب كشف منفذي الهجوم على مستعمرة نهلال، واستمرت حالة السكون عند القسّام حتى أوائل عام ١٩٣٥، ويبدو أن الظروف الصعبة التي أخذت تمر بها البلاد في تلك الأعوام، هي التي دفعت الشيخ للعودة إلى العمل مجدداً مع علمه بشدة المراقبة البوليسية على تحركاته. فقد دخل فلسطين خلال عام ١٩٣٤ وما قبله حوالي ٤٢,٣٥٩ يهودي، استوطنوا بإشراف الحكومة ومباركتها، ناهيك عن الأعداد التي دخلت بهجرة غير شرعية. وامتلك اليهود مع بداية العام نفسه ٦٢,١١٤ دونماً من الأراضي الفلسطينية تسربت إليهم عن

طريق الحكومة والسماسرة، وكان هذا يعني المزيد من التشريد للفلاحين وتهديد آخرين بقرب تشريدهم.

أعاد القسّام في بداية عام ١٩٣٥ اتصاله مع جمعية الشبان المسلمين في مدينة صور، وأرسل إليهم خمس بنادق وعدة قنابل، وأوعز إلى المناضلين هناك بالانتظار إلى أن تصل أوامر أخرى بتنفيذ العمل، وحين حضر مؤتمر علماء فلسطين المنعقد في شهر كانون الثاني ١٩٣٥، ناقش في لقاء سري مع عدد من العلماء ومنهم المفتي ضرورة تنفيذ أعمال مسلحة ضد اليهود والإنكليز، وقد عارض جميعهم مقترحاته ما عدا المفتي.

واستمر القسّام في اختيار العناصر الشابة للجهاد، وخلال فترة قصيرة انتظم عنده في المنظمة السرية ما يزيد على مئتين من الشباب الجيدين. وقد وصلت هذه المعلومات إلى الوكالة اليهودية، حول وجود تنظيمات سرية في شمال فلسطين تقوم بالتدرب على السلاح من قبل ضباط كان لهم دور في الثورة العربية في عهد فيصل. ولذلك قرر الشيخ عز الدين القسّام في تشرين الثاني ١٩٣٥م، الخروج من حيفا إلى القرى والدعوة إلى الثورة علانية.

استشهاد الشيخ
عز الدين القسام

غادر القسام ليلة ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥م ومعه أكثر من خمسة وعشرين من إخوانه من مدينة حيفا إلى قرى قضاء جنين، لدعوة الشعب على نطاق واسع للاشتراك بالثورة، ودخل الشيخ عز الدين القسام كفر دان، ومنها أرسل الرسل من إخوانه إلى قرى يعبد وعرابة وفقوعة وصندلة وقباطية، ليشرحوا أهداف الثورة الوطنية، وكان أهالي هذه المناطق يعرفون الشيخ عز الدين القسّام من على منبر جامع الاستقلال في حيفا، ومن خلال زياراته إلى القرى، لذلك استجابت له ولرسله أعداد كبيرة من الرجال المخلصين.

وبينما كان محمود سالم يقوم بالحراسة في ١٤ /تشرين الثاني/١٩٣٥م مع زميل له قرب قرية فقوعة، شاهدا دورية

بوليس فرسان مكونة من شاويش يهودي وبوليس عربي من مستعمرة عين حارود، وعندما تقدم الشاويش اليهودي من مركز الحراسة الأمامي طلب منه التسليم فرفض، عندها أطلق محمود سالم رصاصتين أردتاه قتيلاً، وهرب زميله حيث أعلم مركز بوليس الجلمة بما حدث. ومن خلال التحقيقات كشفت سلطات الإنكليز أمر القسّام وعرفت مكانه من جواسيسها، فسارعت إلى قمع الثورة قبل اتساع نطاقها.

قامت على إثرها قوات كبيرة من البوليس الإنكليزي في صباح ١٥/ تشرين الثاني/١٩٣٥ بتطويق عدة قرى للبحث عن قاتل الشاويش أدت إلى اشتباك مسلح قرب قرية البارد أسفر عن استشهاد الشيخ محمد الحلحولي من قضاء الجليل، وقتل اثنين من البوليس. وتطورت الأمور بسرعة وخسر الشيخ القسّام عنصر المفاجأة الذي كان يسعى إليه، للقيام بهجوم مفاجئ على مدينة حيفا.

في صباح ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٥. تحركت قوات كبيرة من البوليس إلى قضاء جنين، وطوقت قرى يعبد واليامون وبرقين وكفر دان وفقوعة.

وكان الشيخ عز الدين القسّام وأحد عشر من إخوانه في قرية الشيخ زيد داخل أحراش يعبد الكثيفة وهم: محمد الحنفي أحمد ويوسف الزيباوي وحسن الباير وأحمد جابر وأسعد كلش من قرية أم الفحم السيد عربي بدوي ونمر السعدي وناجي أبو زيد ومحمد يوسف والشيخ داوود خطاب وتوفيق الزيري.

وضع البوليس الإنكليزي خطة لمحاصرة قرية الشيخ زيد لقطع الاتصال مع القرى المجاورة، خوفاً من وصول نجدات من القرى العربية المجاورة. وتنبه إخوان القسّام لعملية التطويق الواسعة، وأعلموا الشيخ عز الدين القسّام بذلك فأمرهم بالاستعداد والدفاع حتى آخر قطرة من دمائهم، مع العلم أنه كان بإمكان الشيخ القسّام وخليته الهرب أو الانسحاب من المواجهة التي فرضت عليه بشكل غير متكافئ، وفور صدور أوامر القائد الشيخ عز الدين القسّام وقع القتال بين قوتين غير متكافئتين عدداً وعدة. وقاتل الشيخ عز الين القسّام وإخوانه الذين رفضوا الاستسلام

ببسالة، وقتلوا عدداً من البوليس الإنكليزي، وخاض إخوان القسّام معركة ضارية استمرت ست ساعات من الصباح الباكر حتى قبيل العصر، حتى استشهد الشيخ محمد حنفي أحمد والشيخ عبد الله الزيباوي، ثم استشهد الشيخ عز الدين القسّام وجرح الشيخ نمر السعدي، كما أسر الشيخ أحمد جابر والسيد عربي بدوي والشيخ محمد يوسف، وتمكن من الإفلات من الطوق الشيخ معروف حجازي والشيخ توفيق الزيري والشيخ ناجي أبو زيد. حيث أظهرت هذه المعركة بطولة نادرة، وكانت مثالاً للتضحية والفداء والإخلاص لله تعالى والأمة والوطن. وقد دوت معركة القسّام الاستشهادية في فلسطين والوطن العربي دوياً هائلاً.

جرت بعد ذلك محاكمات عسكرية للأسرى، وحكم على كل من حسن الباير ومحمد يوسف وعربي بدوي وأحمد جابر بالسجن خمسة عشر عاماً، وحكم غيابياً على نمر السعدي بالسجن سنتين، الذي اعتقل بعد المحاكمة بعدة أشهر.

وبذلك تمكن الإنكليز من القضاء على قائد الثورة وعدد من إخوانه، وفشلت الخطة المقررة لاحتلال دوائر الحكومة في حيفا، والاستيلاء على الأسلحة التي ستسلم إلى الثوار للقيام بأعمال فدائية واسعة تمنع إقامة دولة يهودية في أي جزء من أرض فلسطين.

ولقد أكرم سكان مدينة حيفا البواسل الشهداءَ الأبرار، وتحدَّوا السلطات الغاشمة، وجرت جنازة مهيبة مثلت يوم حداد وطني شامل في فلسطين، اشترك فيها عشرات الألوف من أبناء الشعب، وجرت مظاهرات وطنية أثناء تشييع جنازة الشهداء، إذ هاجم أبناء الشعب الثائر دوائر البوليس، والدوريات الإنجليزية بالحجارة.

ونشرت تلك المظاهرات وعياً في صفوف الشعب الفلسطيني، وأخذ كل فرد يفكر بالثورة المسلحة على الظلم والطغيان، وأخذ إخوان القسّام من العلماء يحرضون الشعب على القتال، وكان للعالم الشيخ كامل القصَّاب وزملائه دور بارزٌ في استلام زمام المبادرة بعد القسّام.

وسار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام العربية، حيث صُلي على الشهداء في المسجد الكبير، وشُيِّع القسَّام إلى قبره في قرية (الياجور) التي تبعد عن (حيفا) نحو عشرة كيلومترات، سارها المشيعون على الأقدام حاملين نعشه.

وبذلك يكون المجاهد الشيخ عز الدين القسَّام أول من عمل عملاً مركزاً للثورة، وترك للأمة عشرات المخلصين الذين قاموا بالدور الرئيسي البارز بالثورة الفلسطينية الكبرى التي اندلعت في (١٥) نيسان سنة ١٩٣٦.

بعض ما قيل عن القسّام

١ - ميمنة بنت عز الدين القسّام:

الحمد لله، ثم الحمد لله الذي شرفني باستشهاد أبي وأعزني بموته، ولم يذلني بهوان وطني واستسلام أمتي.

٢ - أكرم زعيتر:

ليس لنا من سبيل إلى الخلاص إلا النضال الدامي، وقد فتح فقيدُنا القسّام الباب فلنلجه وإنا لفاعلون.

٣ - الدكتور أمين رويحة:

لقد أحيا القسّام وإخوانه في نفوسنا الأمل بعد أن كدنا نفقده، وليتني علمت بعصابته لكنت – والله – أولَ من ينضم إليه، فهذا – والله – سبيل الخلاص وحده.

٤ - جمال الحسيني:

القسّام القسّام... اسم سوف يبقى في فلسطين، يتردد في أجوائها، فيوقع الرعب في قلوب الذين يسيطرون عليها

بحرابهم، ويُتلى في صفحات تاريخها الخالدة فيملأ نفس القارئ إكباراً وإعجاباً.

٥ - **الشيخ سليمان التاجي الفاروقي**:

وعسى الأمة العربية في فلسطين أن تخلد ذكرى هذا البطل – عز الدين القسّام – ورفاقه الميامين، بالاستكثار من التسمي بأسمائهم والتوفر على دروس سيرتهم.

٦ - **صبحي الخضراء**:

إن القسّام قضى على الردة التي أفسدت على البلد اتجاهه، إننا لا نؤبّن ملكاً ولا زعيماً ولا رئيساً، ولكن نؤبّن رجلاً من صميم الشعب صار حديث البلد وشغل دولة بأسرها.

٧ - **حمدي الحسيني**:

إن القسَّام عدَّل من هذه القضية ما اعوجَّ.

٨ - **عجاج نويهض**:

سافر القسَّام، وكان جواز سفره الأكبر مصحفًا في جيبه وقلبه.

الشاعر محمد صادق عرنوس:

من شاء فليأخذ عــن القــسام

أنموذج الجندي فـــي الإســـلام

وليتخـــــذه إذا أراد تخلـــــصاً

من ذلة الموروث خيــر إمـــام

ترك الكلام ورصـــفه لهواتـــه

وبضاعة الضعفاء محض كلام

قائمة المصادر

- أنطونيوس، جورج - يقظة العرب - تعريب ناصر الدين الأسد وإحسان عباس بيروت - دار العلم للملايين، ١٩٦٩.
- خلة، كامل - فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩ - بيروت - منظمة التحرير - مركز الأبحاث - الطبعة الأولى، ١٩٧٤.
- دروزة، محمد عزة - القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها - الجزء الأول - دمشق - دائرة الثقافة والإعلام - الطبعة الثالثة، ١٩٨٤.
- السعيد، أمين - الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية الفلسطينية العربية في ربع قرن - مكتبة مدبولي - المجلد الثالث.
- سكيك، إبراهيم (وأخرون) - بطولات فلسطينية وعربية - مطابع دار أخبار فلسطين، ١٩٦٦.
- شراب، محمد حسن - عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- الصالح، محسن محمد – أرض فلسطين وشعبها – كوالالمبور، ماليزيا – الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

n

الصفحة

الصفحة

قائمة بسلسلة الأعلام للناشئة

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	محمود درويش	عادل محمود
٢	الأمير السعيد (محمد عبد الكريم)	محمد بري العواني
٣	اسحق الموصلي	خليل البيطار
٤	الملك الظاهر بيبرس	د. عماد الدين غانم
٥	رحلة ابن جبير	د. نوفل نيوف
٦	عمر الخيام	هنادي زرقة
٧	عباس ابن فرناس	محمد رضوان الداية
٨	ألبرت آينشتاين	حسن بلال
٩	موتسارت	محمد حنانا
١٠	أبو حيان التوحيدي	ثناء عباس
١١	ليلى الأخيلية	د. سمر ديوب
١٢	مي زيادة	خليل البيطار
١٣	المسعودي	د. نوفل نيوف
١٤	السيد والسيدة كوري	ترجمة: فاتن مرتضى
١٥	لوركا	هنادي زرقة
١٦	كريستوفر كولومبوس	فادي غانم

١٧	ابن طفيل الأندلسي	محمد رضوان الداية
١٨	بدوي الجبل	عزيز نصار
١٩	ابن حزم القرطبي	محمد رضوان الداية
٢٠	أبو فراس الحمداني	د. شوقي المعري
٢١	يوسف العظمة	بسام جميدة
٢٢	داوود قسطنطين الخوري	محمد بري العواني
٢٣	إبراهيم هنانو	ماهر الأشرم
٢٤	صالح العلي	عزيز نصار
٢٥	سلمى الحفّار الكزبري الأديبة المتفوّقة	عيسى فتوح
٢٦	أعلام في ريادة الفضاء	محمد حسام الشالاتي
٢٧	عمرو بن بحر الجاحظ	د. طالب عمران

الطبعة الأولى / ٢٠١٤م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

يعتبر الشيخ عز الدين القسّام من أبرز الشخصيات التي كان لها دور بارز وفاعل في مرحلة المقاومة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. وهو رمز كبير من رموز الحركات الوطنية الثورية.. ضحّى بماله وروحه من أجل القضية الفلسطينية... واختطَّ في حياته وموته منهجاً نضالياً مقاوماً، أعطى القضية الفلسطينية بعداً جديداً لا تزال ثماره الزكية تؤتى أكلها حتى اليوم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

E-mail: syrbook.dg@gmail.com

هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٤م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها